تثبيت أهل الحديث بالسنغال

بقلم: أبي عبد الرحمن محمد بن علي السنغالي

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يَسِّر ولا تُعَسِّر، واهْدِ قلبي إلى التي هي أتقى وأبرُّ، وأطلِقْ لساني على الحق، وصَرِّفْ قلبي على الصدق، واكسُ لفظي بهاءَ البيان، وغَشِّ مَنْطقي جمال البلاغة، وبلِّغني مرادي من نُصْرَة أوليائك، والنفاح عن صالحي عبادِك، أولئك الذين قاموا لك، وأطاعوك، وصدقوا نبيك، وآمنوا بوعدِك، وصبروا على الجهاد فيك. فانصرْهم –يا رب- ولا تنصرْ عليهم، وامكُرْ لهم ولا تَمْكُرْ عليهم، وأعِنْهم ولا تُعِنْ عليهم.

فهذا – ويرحمني الله وإياكمْ، ويُجنِّبُنا الشبهة، ويَشرحُ صَدورَنا للْحَقِّ، ويرْزُقُنا الهدى ولزومَ التقوى، وإيثار الأخرى على الأولى، ويَنفَعني وإياكم بحبِّ القرْآن وأهلِهِ واتباع السنة وأهلِها- كتابٌ تَيَسَّرْتُ لوضعِهِ، وخَفَّتْ نفسي إلى رَقْمِهِ، ودعاني إلى إنشائهِ ثم إنفاذِهِ إليكم –إخواني الكِرام- ما قد تَمَّ من حديث بيني وبين الأخ الوادع الرشيد والوافر النجيب أحمد بن عثمان بَهْ إثرَ اتصالِهِ بي في شهر رمضان المنصرم. وكُنْتُ -كما أخبرْتُهُ- باتصالِهِ فرحاً مسروراً، لما آنسْتُهُ من قِبَلِهِ وقِبَلكم من حُبِّ التبيُّن، واستعمال التثبُّت، وطرح العَجَلَة، والإقدام على غير بصيرةٍ وميزةٍ. وقد كان يُقال: " إن التأنّي حِصْنٌ منيعٌ، إليه يَتوافى الرأي، وبه يُستماح النُّجْح، ويُتَوَقَّعُ الظَّفَرُ بكل مطلوب. وقال معاوية بن أبي سفيان: "أخطأ عَجِلٌ أو كادَ، وأصابَ مُتثبِّتٌ أو كاد".وقال بعضهم: "أول العي الاختلاط، وأوسط الرأي الاحتياط"؟ وأَعْلى مِنْ ذلك كلِّهِ ما حدَّثَ به أبو عيسى الترمذي رحمه الله: حدثنا أبو مصعب المدني حدثنا عبد المهمين بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأناة من الله، والعَجَلَة من الشيطان". والحديث فيه كلامٌ.

فكان ما كان من أمرِكم على سداد آرائكم، وذكاء قلوبكم، وسلامة فِطَرِكُمْ دليلا واضحا، وبرهاناً صحيحا. فشكر الله لكم ذلك. وأَحْرِ بِمَنْ جَرَى على صِفتِكُمْ أن يُرى منه عَمَلُ الرُّشد،

وتكون بوادِرُه مما يَسُرُّ ولا يَسوءُ، وإنكم –على كل حال وعند مَنْ تَصَوَّرَكم التَّصَوُّرَ الصحيح– صفوةُ تلك البلاد، وأحقُّ أهلِها بالأَثَرَة، وأشرفهم عندنا منزلةً.

والذي أنا كاتبُهُ لكم ههنا في هذا الكتاب لن آلوَ لكم فيه –إن شاء الله– نُصْحاً وتَنصُّحاً، ودلالةً لكمْ إلى ما هو أردُّ عليكم، وأملأ بالخير ليديكم، وإلى ما عسى أن يُحِقَّ الله به الحقَّ، ويُبْطِلَ به الباطل، ويُستبان به سبيلُ المصلحين من سبيل المفسدين. نَعَمْ، وصَرَّفْتُ فيه وجوهَ القولِ، ومنازعَ الحِجاج، ومعاقدَ البيان، والمبالغة في التفصيل على صفةٍ رجوتُ أن يكون الكتاب فيها أبعدَ من مذاهب الجِدال والمِراء واستعمال الهوى. وما أحسَنَ ما قيل في أدب الخِلاف: " إذا أردتَ أن يُقبلَ قولكَ فصَحِّحْ رأيَكَ ، ولا تَشُوبَنَّهُ بشيءٍ من الهوى ، فإن الرأي الصحيحَ يَقْبَلُهُ منكّ العَدُوُّ، والهوى يردهُ عليكَ الولدُ والصديقُ". وإلى الله الرغبة أن يَحملني على السَّويةِ فيما أوردُ وأُصدِرُ، والاقتصاد فيما آتي وأذر، ويَعْزِمَ لي على العِصْمَة الكالئة، والرُّشْدِ المُنجي، والحِياطةِ الشاملةِ.

والرأي إذا بلغكم الكتابُ أنْ يُعْطى الأخ أبو محمد أحمد فَيْ الطبيب منه نُسخةً، والأخ أبو أيوب نُسخة، والأخ مُخْتار سِلَّهْ نُسْخة، وكذا أَضراب هؤلاء من الإخوة المتثبِّتين في تحقيق المسائل، والمُميّزين بين ما يَنفعُهم وما يَضُرُّهم، أمثال الأخ عبد الكريم غُجابي، والأخ عبد المصور، والأخ أبي بكر انجاي المعروف عندكم ب "امْبَايْ انْجايْ" وأضرابِهِمْ. وقد سَمَّيْتُ هؤلاء لنزولِهم عندي في الرأي والحِلْم وفِقْهِ النَّفْس بمنزلة الثِّقةِ والكفايةِ، ولمعرفتِهِم بما لهم وعليهم، ولما راضوا عليه أنفسَهم في الفتَنِ الماضية من الخِبْرة وحُسْن الاعتبار. فهُمْ –إن شاء الله– على ما حكيتُ من صِفتِهم – إن تدبَّروا كتابي بتجرُّدٍ وتَمَهُّلٍ وقَرَأُوه بتنظُّرٍ– أَحِقَّاءُ أن يَقِفوا

على موضع الحَظِّ منه، وجِهَةِ الانتفاع به، ومكانِ الصَّوابِ فيه، والغرض الذي أَرَغْتُ الكلامَ إليهِ.

جعلكم الله – يا إخواني – ممن يقول بالحق ويعمل به ويُؤْثِرُه، ويَحْتَمِلُ ما فيه مما قَدْ يَصُدُّهُ عَنْه ولا يكون حظه منه الوصف له والمعرفة به، دون الحث عليه والانقطاع إليه وكشف القناع فيه وإيصاله إلى أهله.

ثم على إثر ذلك، فإني أوعِزُ إليكم –إخواني– بالنصيحة بالحرص على العلم النافع، والمسابقة إلى العمل الصالح، وإحياء مجالسكم بذكر الله، والدعاء إلى تقواه، والتعاون على نشر السنة، ومذاكرة سيرة الأنبياء وأخلاق العلماء، والتواصُف لأحوال الصالحين، وتعليم الناس الدين، فإن الخير كله فيمن عَرَّفَهُ الله دينَهُ، وكفى بالمرء جهلا أن لا يعرف دين الله. وقال علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–: "الناسُ ثلاثة فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح". وليس بدٌّ من أن يكون أحدنا في هذه الطوائف، فليخترْ كل امرئ ما شاء. وقد أعلم أن فيكم من هو ذو ذكاء واعد، له في العلم طبيعة قابلة، وأعراق إليه واشِجَةٌ، وأنسابٌ بينهما شابكة، لو رام منه شيئا لم يَجِدْ دونه ما يَحولُهُ، ولم يَقْصُرْ عنه باعُهُ، ولا ضاق به ذراعُهُ. وقد جاء في الخبر: "إِنَّ مِنْ مَعادن التقوى تَعَلُّمُك إلى ما قَدْ عَلِمْتَ عِلْمَ ما لم تَعْلَم، والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه، وإنما يزهد الرجل في علم ما لم يعلم قلةُ انتفاعه بما علم".

فاحرِصوا –وفقكم الله– على العلم وتحصيلِهِ، ولا تُسَيِّبوا أنفسَكم بالإهمال وطول الفراغ. وإذا ضَمَّكم النديُّ فتَسَرَّحوا في مذاكرة العلم والسنة ومنافع الرأي. وإني أحمد الله كثيرا على ما يسَّرَهُ لنا من القدوم على هذه الدار. ووالله لولا مَنْ خَلَّفْتُ ممن وجَبَ القيامُ عليهم والنظر لهم

والعناية بهم لما فَصَلْتُ عنها أبدا، ولاتخذتُها إذن دارَ إقامة. وإن على بعضكم ممن لم يَتَلَبَّس بعدُ بأهل أو عملٍ يَرْتَبِطُهُ البِدارَ إلى الخروج إلى الطلب ولقاء العلماء قبل أن يُحالَ بينه وبين ما أسبابُه له مُمْكِنةٌ، وفُرَصُهُ له مُعْرِضَةٌ. وهذه ذكرى والذكرى تَنْفعُ المؤمنين.

أما بَعدُ، فقدْ كان – كما قُلْتُ- اتصَلَ بي الأخ أحمد، فذكَرَ أن خَبَراً وَرَدَ عليكم -أيامَكُمْ هذه- من جهة الشيخ الوالد ربيع بن هادي المدخلي -مَتَّعَ الله به أهلَ الحق- يَحمِل طَعْنا في شيخِنا يحيى، وقدحاً في سلوكِهِ، ونسبتَهُ إلى مذهب الحدادية. وذكر الأخ أحمد أنه مع جماعةٍ من الإخوان أَحَبُّوا أن يتبيَّنوا من هذا الخبر حتى لا يَبْقَوْا في شُبْهةٍ منه، ويزولُ اللَّبس عنه، ويَقِفوا على برد اليقين عليه.

فأخبرْتُه بما معناه أن مَنْ طَعَنَ في الشيخ يحيى أو قَدَحَ في سلوكِهِ، أو نَسَبَه إلى هذا المذهب الرديء فقدْ أخطأَ جادَّةَ الصواب، وحاد عن محجَّةِ الحقّ. إذ ذلك لا يكون إلا على التوهُّم والظنِّ الضعيف الذي لا ينبغي للرَّشيد أن يَلْتَفِتَ إليه فضلاً من أن يُعَوِّلَ عليهِ.

والذي قد عَلِمَهُ الناسُ من الشيخ ربيع أنه قد أثنى غير مَرَّةٍ على الشيخ يحيى، وقَرَّظَ طريقَهُ، وجَوَّدَ مذهبَه في السُّنَّة، وحثَّ على التلقِّي عنه ههنا في دار الحديث بدماج. وذلك كلُّهُ ثابِتٌ عنه بما كَتَبَه الشيخ في الجُمْلةِ، ونَطَقَ به في كلامِهِ المُسَجَّل المَحْفوظ. وهو معروف موضعُه لمن أراده. حتى إنه قد قال مرة عنه: "كيفَ أتكلم على رَجُلٍ مَسَك بهذه الدعوة بيد من حديد، ولا تَصْلحُ –الدعوةُ- إلا به وبأمثالِهِ".

وسبيل هذا الثناء على شيخنا سبيل ما جاء عن جماعة من شيوخ السُّنَة كمثل الشيخ الراحل أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي -وهو ما تعرفون في الثبات، والوفور والجلالة-، فقد كان -رحمه الله- كثير الإعجاب بتلميذه هذا، عظيم الفرح والاستبشار به، وقد قال -رحمه الله- عنه في بعض كلامه: أخونا في الله، الشيخ الفاضل، التقي الزاهد، المحدِّث الفقيه، أبو عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري،... قال: الأخ الشيخ يحيى هو ذلك الرجل المحبوب لدى إخوانِهِ لما يرونه فيه من حسن الاعتقاد، ومحبة السنة، وبغض الحزبية المساخة، ونفع إخوانِه بالفتاوى التي تعتمد على الدليل، أسأل الله أن يحفظه، وأن يدفع عنه كل سوء ومكروه، وأن يعيذنا وإياه من فتنة المحيا والممات. (انظر مقدمته على كتاب شيخنا "ضياء السالكين في أحكام وآداب المسافرين".

وقال أيضا -قدَّسَ الله روحه-: إنه -أي الشيخ يحيى- قد أصبح مرجِعا في التدريس والفتوى، .... وقال: " إنه -أي الشيخ يحيى- في غاية التحري والتقى والزهد والورع وخشية الله، وهو قوال بالحق، لا يخاف في الله لومة لائم، وهو -حفظه الله- قام بالنيابة عني في دروس دار الحديث بدماج، يُلقيها على أحسن ما يُرام....

فلا جرم أنْ لا يُتقبَّل فيه قَدْحٌ أو ذمٌّ إلا بعد التفتيش واستعمال الروية. فمن لم يَفْعَلْ، وأبى إلا أنْ يُقَدِّمَ سوءَ الظنِّ، ويُفْسِدَ اليقين بالشُّبْهة فقد أقرَّ على نفسِهِ بالهوى والعصبية، لا سيما إذا كان هذا الكلام الذي يبلغكم عن الشيخ لا يَحملُهُ عنه -على الغالب- إلا المضصغنين على شيخنا حِقْداً، والساعين في تهجين حالِهِ. أما نحن فإلى ساعاتنا هذه ما رأينا للشيخ في ذلك ما هو مسجل بصوتِهِ أو مخطوط بيدِهِ. وقديما نُشِرَ عنه مثلُ هذا فلما رُوجِعَ فيه انتفى عنه ولم يُثْبِتْهُ.

فإن كان هذا الكلام الذي بلغكم هو ذلك القديم نفسه فلا ينبغي التشاغل به لما قد علمتم، وإن كان كلاما آخر غيره، بل مؤتَنَفٌ جديدٌ من قِبَلِ الشيخ ربيع فإنه –بعد التوثّق من ثبوتِهِ– مما يَحتاجُ أن يُسْتدلَّ له، ويُذْكرَ البرهانُ عليه، ويُفصَّل الدليل فيه، حتى يُعْلَمَ كيف هو، ومن أين قالَهُ، وعلى أي أساسٍ أقامَهُ. لأنه جرحٌ، والجرح فيمن ثبتَ تعديلُهُ لا يُقْبَلُ إلا إذا كان مُفَسَّراً، وبالبيان مُفصَّلا، ومع الدليل مشفوعاً. وليس أحدٌ بعد النبي –صلى الله عليه وسلم– إلا ويؤخذ من قوله ويُردّ.

وأبأسُ الناس في العلم مَنْ صار لا يعرف الصواب من الخطإ، ولا الصحيح من الفاسد، ولا يَفْصِلُ بين الحق والباطل، ولا يتبين بين الذي يجوز والذي لا يجوز إلا بمثل ما تُعايِرُ به العامة الأشياء؛ لأن العامة لا ترى الحق إلا مع من هو أكبر سِنًّا، وأشْهَرُ موضِعًا، وأنفَذُ أمرا، وأكثرُ أتباعًا. فقلَّ ما يُفْلِحُ عندهم الصغيرُ سِنُّهُ، والمغمورُ موضِعُهُ، والمجهول مكانُهُ. ألا ترى أنك إذا انحطَطْتَ إلى هذه الرتبةِ من القياس والمعايرة فقد بَخَسْتَ نفسَكَ نعمة العقل والنظر، وحرمتَها لَذَّةَ المعرفةِ والتبيُّن، ونُزِعَ منك عِزُّ الحقّ، وضُرِبَ عليك ذُلُّ التقليد، وفقدْتَ راحةَ اليقين وسكون المعرفة، وصِرْتَ –لا محالة– إلى فسولةِ الجهل؛ ومَنْ جَهِلَ كثُر ظلمُهُ، ومن كثُرَ ظُلْمُه قَلَّ إنْصافُهُ، ومن قلَّ إنصافُهُ لم يَفْهَمْ، ومن لم يَفْهَمْ لم يَعْلَمْ، ومن لم يعلمْ ولم يَفْهَمْ صار إلى أخلاقِ مَنْ لا يُحْمَدُ على خيرٍ فَعَلَهُ ولا شَرٍّ تَرَكَهُ. ثم إذا جَمَعَ إلى هذه الصفات أن يَدَّعيَ النظرَ، ويَنْتَحِلَ التفقُّهَ، كان أوقَحَ في حالِهِ، وأسْمَجَ لأمرِهِ، وأمقَتَ لشأنِهِ، وأذهبَ في سوء الحال به، وصارتِ العامةُ خيراً منه مكانًا؛ لأن العامةَ تَجْهَلُ وتَعْلَمُ أنها تجهلُ؛ وأما هذا فقد جَهِلَ ثم لم يَعْلَمْ أنه جَهِلَ، فجهلُهُ جهل مركَب على جَهْل. فمثل هذا –أكرمكم الله– صُحْبَتُهُ شُؤْمٌ، ومُجانبتُهُ غُنْمٌ، والثقةُ به عَجْزٌ، وسوءُ الظنِّ فيه حَزْمٌ، لأنه على الإساءة أقدر منه على الإحسان، وهو إلى التي أقبح أسرعُ منه إلى التي هي أبرُّ.

وبالجملة، فمَنْ قَلَّدَ في دينِهِ، وأعرَضَ عما يَدْعو إليه الكتاب، ويَحْمِلُ عليه الدليل فقد هانتْ عليه نَفْسُهُ، ونازعها إلى التي هي أصْغَر وأحْقَر، ويوم الحساب لا يَجِدُ عند الله ما ينفَع، وهو قولُهُ تعالى: " يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا". فنعوذ بالله مما جمع خزي الدنيا ونكالَ الآخرة.

وأقْسَمْتُ بالله –قَسَماً باراًّ– أن الدعوةَ ههنا في دار الحديث هي هي على ما كانتْ عليه أيام الشيخ مقبل –رحمه الله، وأن الشيخ يحيى ما بدَّلَ ولا غيَّر، بل هو أسوة من تقدَّمه، وناسِجٌ على منوال من قبلَه، وضاربٌ في سبيلٍ قد كان وَطَّأَها لَهُ. ولكنْ –يا إخواني– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما أبقى لصالِحٍ من العاملين على الهوى، والمؤثرين للشهوة وليًّا ولا حميما. فقال العبد الصالِحُ أويس القرني: " إن قيام المؤمن بأمر الله لم يُبْقِ له صديقا، والله إنا لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر، فيتخذونا أعداء، ويجدون على ذلك من الفساق أعوانا، حتى – والله– لقد يرموننا بالعظائم، وأيم الله، لا يمنعني ذلك أن أقوم لله بالحق".

وحسبُكُمْ قولُهُ: " حتى –والله– لقد يرموننا بالعظائم". وما أصدَقَه من كلمة. قال الشيخ عبد العزيز بن باز –رحمه الله–: "إن أهل الأهواء لو استطاعوا أن يتهموا الداعيَ إلى الله أنه يأتي أمَّه عَلَنًا لفعلوا". وأنتم قد تَعْلمون ما يَتكَذَّبون به على شيخنا من أنه يطعن في رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وأنه يطعن في الصحابة –رضي الله عنهم–، وأنه شيعيّ مدسوس على أهل هذه الدعوة، وأنه يذهب مذهب الباطنية، وغير ذلك من الألوان التي يتَحَيَّلون بها على تهجين حالِهِ.

ثم اعلموا –علمكم الله– أنه ما كان فاضلٌ قطّ إلا ابتُلِيَ بحُسّادٍ يعملون على فساد حالِهِ، وتهجين أمرِهِ، وإيغار صدور العامة والخاصة عليه، والوِشايَة به، والسِّعايَة عليه، لا يُحبون من الناس إلا من يُبْغِضُهُ، ولا يُبْغضون من الناس إلا من يُحِبُّهُ. فقاتَلَ الله الحسدَ، فهو –كما قالت شيوخ الأدب– داءٌ يَنْهَكُ الجَسَد، ويُفْسِدُ الوُدَّ، عِلاجُه عَسِر، وصاحبه ضَجِر. وهو باب غامض وأمر متعذر، وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في عناء. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: " دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء " . وقال بعض الناس لجلسائه: أي الناس أقل غفلة؟ فقال بعضهم: صاحب ليل، إنما همه أن يصبح. فقال: إنه لكذا وليس كذا. وقال بعضهم: المسافر، إنما همه أن يقطع سفره. فقال: إنه لكذا وليس كذا. فقالوا له: فأخبرنا بأقل الناس غفلة. فقال: الحاسد، إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها، فلا يغفل أبداً.ويروى عن الحسن أنه قال: "الحسد أسرع في الدين من النار في الحطب اليابس".وما أتي المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه قال الله عز وجل: " أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً " . والحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضد الحق، وحرب البيان. فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال: " ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم " . منه تَتَوَلَّدُ العداوة، وهو سبب كل قطيعة، ومنتج كل وحشة، ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرق بين القرناء، وملقح الشر بين الخلطاء، يكمن في الصدر كمون النار في الحجر.

قالوا: إنه لو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم الغموم على قلبه، واستمكان الحزن في جوفه، وكثرة مضضه ووسواس ضميره، وتنغص عمره وكدر نفسه ونكد عيشه، إلا استصغاره نعمة الله عليه، وسخطه على سيده بما أفاد غيره. وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه، وأن لا يرزق أحداً

سواه، لكان عند ذوي العقول مرحوماً، وكان لديهم في القياس مظلوماً. وقد قال بعض الأعراب: " ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم " . والحاسد مخذول وموزور، والمحسود محبوب ومنصور. والحاسد مغموم ومهجور، والمحسود مغشي ومزور.

وقالوا: الحسد – رحمك الله – أول خطيئة ظهرت في السموات، وأول معصية حدثت في الأرض، خص به أفضل الملائكة فعصى ربه، وقايسه في خلقه، واستكبر عليه فقال: " خلقتني من نار وخلقته من طين " ، فلعنه وجعله إبليساً، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيساً، وشوه خلقه تشويهاً، وموه على نبيه تمويهاً نسي به عزم ربه، فواقع الخطيئة، فارتدع المحسود وتاب عليه وهدى، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشقي وغوى. وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه، فعصى ربه وأثكل أباه. وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. لقد حمله الحسد على غاية القسوة، وبلغ به أقصى حدود العقوق، فأنساه من رحمه جميع الحقوق، إذ ألقى الحجر عليه شادخاً وأصبح عليه نادماً صارخاً.

قالوا: ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنياً أن يوبخه على المال فيقول: جمعه حراماً ومنعه أثاماً. وأَلَّبَ عليه محاويج أقاربه فتركهم له خصماء، وأعانهم في الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر وقال له: لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون. وإن وجد له خصماً أعانه عليه ظلماً، وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه، أو تفضل عليه بمعروف كفره، أو دعاه إلى نصر خذله، وإن حضر مدحه ذمه وإن سئل عنه همزه، وإن كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلة عظمها، وقال: إنه يجب أن يعاد ولا يعود، ويرى عليه العقود. وإن كان المحسود عالماً قال: مبتدع، ولرأيه متبع،

حاطب ليل ومبتغي نيل، لا يدري ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل. قد أقبل بوجوه الناس إليه، وما أحمقهم إذ انثالوا عليه. فقبحه الله من عالم ما أعظم بليته، وأقل رعته، وأسوأ طعمته. وإن كان المحسود ذا دين قال: متصنع يغزو ليوصى إليه، ويحج ليثنى بشيء عليه، ويصوم لتقبل شهادته، ويظهر النسك ليودع المال بيته، ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته".

فقلتُ أنا: إن ههنا موضعَ اعتبار لمن يَعْتَبِر، ومحلَّ تبيُّن لطف الربّ اللطيف لمن يتفكَّر؛ وهو أن عمل الحُساد وإن كان في ظاهر الحال أذاءً للمحسود، فهو في باطن الأمر منفعة عظيمة تعود عليه، وفائدةٌ جليلة ترتدُّ إليه حتى يصير له من البركة وحُسنِ الموقعِ مثل أَصْفَر سَليم. فإنه ما نُشِرَتْ مناقبُ الفاضل، ولا نُثِيَتْ محاسِنُ المُبَرِّز، ولم تُنْشَر فضائل المتقدِّم بمثل ألسنة الحُساد، ألا تَرَونَ إلى قولِ الشاعر:

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلة طُوِيَتْ أتـــــاح لها لسانَ حسود

قال العلامة الأديب القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الشافعي في صدر كتاب الوساطة: صدق والله –أي الشاعر– وأحسن! كم من فضيلة لو لم تستَتِرْها المحاسد لم تبرحْ في الصدور كامنة، ومنقبةٍ لو لم تُزْعِجْها المنافسة لبقيتْ على حالها ساكنة! لكنها برزتْ فتناولتْها ألسنُ الحسَّد تجلوها، وهي تظن أنها تمحوها، وتشهَرُها وهي تحاول أن تستُرَها؛ حتى عثَر بها مَن يعرف حقها، واهتدى إليها مَنْ هو أولى بها، فظهرت على لسانه في أحسن معرِض، واكتست من فضله أزينَ ملبس؛ فعادتْ بعد الخمول نابهة، وبعد الذبول ناضرة، وتمكنتْ من برِّ والدها فنوّهت بذكره، وقدَرتْ على قضاء حقِّ صاحبها فرفعتْ من قَدْره "وعَسى أن تكْرَهوا شيْئاً

وهُوَ خيرٌ لكُم". انتهى كلامُه، وهذا اللفظ –وفقكم الله– كافٍ في كلّ ما أريغُ إليه الكلام منذ الآن. فشيخُنا يحيى:

جــوهرةٌ تفرَحُ الشِّراف بها وغُصَّةٌ لا تُسغُها السَّفِلــَهْ
إن الــــكِذابَ الذي يُكادُ به أهونُ عندَه من الذي نَقَلَهْ
فـلا مبالٍ ولا مُداجٍ ولا وا نٍ ولا عـاجِزٌ ولا تُكَلَــــهْ

وههنا مذهب في البيان نحن نعتمده حيث إنه ليس أشجى للعدو المكاشح، ولا أغيظ للحاسد المنافِس من أن تُروى للسامعين محاسنُ محسودِهِ، وتُنَصُّ على أعيُنِ الناظرين فضائل منفوسِهِ، كما قال:

شَجْوُ حُسَّادِهِ وغَيْظُ عِـــــداه أنْ يرى مُبْصِرٌ ويَسْمَعَ واعِ

وأنا –إن شاء الله– كاتِبٌ لكم ما به تتصورون هذا الرجل تصوُّرَه، وتبلغوا به حقيقةَ صفتِهِ، وتقفوا على كُنْهِ معرفتِهِ، وتعلموا صحةَ طريقتِهِ، وسداد سمتِهِ. وقد جعلْتُ على نفسي أني بقلمي لأَنْصُرَنَّ الحق وأهلَهُ، ولأُرْبِدَنَّ به وجوهَ أهل الباطل. وعند الله في ذاك الجزاءُ، ومنه أرجو أن يجعلَهُ له رضا، ويكتُبَ لي التوفيق إلى ذلك.

وبالجملة، فشَيْخُنا من حسنات البلاد اليمنية ، ومحدثي ديارها ، ورجالاتها العظيمة . بل هو أَنْبَلُ مَنْ في تلك الناحية اليوم ، وأجلّ من قد رأتْه عيناي فيها .

وشيخُنا –حفظه الله- يأخذ بأحسنِ الخصال، ولا يَحيمُ عن كرائم الفعال. ثم إنه –ولله الحمد- لا يزال لطلاب العلم جمالا، ولأهل هذه الدعوة ثمالا، يُشْغَفُ بالإنصاف ، ويعظم الحق ويوالي فيه، ويصغر الباطل ويعادي عليه، ويرغب عن التقليد ويزري به. وبالناس إقبال عليه، وفي قلوبهم مودةٌ له، لحبه للسنة، وحلمه، وزهده، وورعه، وتَصَوُّنِه، ووفائه، وغضبه لله، وصبره فيه.

فأحسَنَ اللهُ جزاء شيخ وادعة ومثوبتَه ، أَمَا – واللهِ – ما قَصَّرَ في حُسْن الاختيار ، والنُّصْح في تَخليف منْ أَحْمَدَ سِيرتَه ، ورَضِيَ سَمْتَه ، وعَرَفَ نصيحَتَه ووفاءَه وكفايتَه.

فهذه دارُ الحديث اليومَ – كما أُسِّسَ مِنْ أوّل يوم – تُعْمَرُ بتلاوة القرآن ، ويُدْعَى فيها إلى الرّشْد ، ويُؤْخَذ فيها أهلُها على طريق الحق وأحْسنِ الهَدْي .

وشَيْخنا يحيى على حِفْظ العهد صابر ثابتٌ ، يَتولَّى دونه النَّصَب، وهو به تامّ العناية، شَديد الرِّعاية، كثير الصيانة.

فَلْيَهْنَأ شيخَ وادعة – إنْ شاء الله – مِنَّةُ الله عليه ، واتّصال ثوابِه إليه ، وحُسْن القبول منه ، والتَّجاوز عنه . " إنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات إنّا لا نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً " .

ومن الدليل على نُبله غَيْرَتُهُ على دَعْوَتِنا ، واتقاؤه الشَّوْهَةَ أن تُلِمَّ بها ، وشَفَقَتُهُ من الإحداث فيها ، وشِدَّةُ حَيْطَتِهِ منها ، ثم مُرُورُه في الاجتهاد على إصلاح الفاسد ، وردّ الشارد مرورا لا ينثني هو فيه ، ولا يَزيغُ ولا يَهِنُ ، ويَحْذو حَذْوا لا يخلف.

ثَبّته الله بالإيمان ، ورَبَطَ على قَلْبِهِ باليقين ، وزاده من نوره ومعرفته . وأفسح في أجله ، ومدّ له في عمره على طاعته . ولا زال لطلاّب العلم منارا ، ولروّاده عَلَمًا ونِبْراسًا ، و بكلّ فضيلة قمينا ، وعلى كلّ إحسان مقتدرا ، ومن كلّ تبديل مصونا .

ولا زال تمتّع به النفوس العَلِيَّة، وتُسَرّ به القلوب الزكية، وتندّى به الأكباد، وتُصْلَحُ به الذُّرِّيّة، وتُنْصَرُ به السنة، وتُقْمَعُ به البِدْعَة، ولا زال سَهْمًا منْ أَسْهُمِ الله يَرْمي به مَنْ يُرِيدُ دينه بالسوء.

وأنتم يا طلابَ دار الحديث –صانكم الله–، فإن مِنْ حقِّكم أن تعلموا أن الشيخ يحي منكم في هذه الدار مكان الأب في كَثْرَةِ الإنصاف، والحَنْو والتحافّ، وما أشبهكم وإياه بقول الأول :

نـــــــــميل على جوانبه كأنّا ... نَمِيلُ إذا نميل على أَبِينَا
نُقَلِّبُه لنَخْبُرَ حالتَيْـــــــــــه ... فـنَخبُرَ منهما كَرَماً ولِينَا

فاتقوا الله في مِنَّتِه به عليكم ، واستديموا النِّعْمة بشكر من ساقها إليكم ، ولا يَتَسَلَّطَنَّ عليكم رَأْيٌ يزيّن لكم العُقُوق ، ويُمَقِّتُ إليكم رعايةَ الحقوق.

ومَنْ نَشَرَ ثَوْبَ الثَّناء فَقَدْ أَدَّى واجبَ الجزاء ؛ وفي كتمان الشّكر جحود لما وجب من الحق، ودخول في كفر النّعم . والله حسيبُ الجميع .

أما أنا فقد قَصَدْتُ هذه الدَّار من غير إشارةِ مُشير، ولا دلالة دليل، ولكن لما بَلَغَنا عنها وعن مَشيختِها من حُسنِ الثناء، وجمال المذهب. ولِلْخَيْرِ –على كل حال– حُدودٌ ووجوهٌ يَتَبَيَّنُ بها رَسْمُه وعلامتُه. ولما قدمتُ عليها لم أزدَدْ إلا تصديقا لما قد كان يُقال، بل وجدت فيها من كرم الصحبة، وجمال العشرة، ما جَعَلَ العِيانَ مُرْبِياَ على ما كان بلغنا من الصفة، والمَخبرَ زائداً على الخبر. ومن أنصَفَ نَفْسَه اعترف بأن أكثر الطلاّب فيها محمود حالُهم، مرجوٌّ خيرُهم، ومأمونٌ شَرُّهُم. وما يُضْحِكُني –والله– إلا رجلٌ قلَّ ورعُه حتى تألّى على الله أن هذا الخيرَ الذي قد أتيتُ الآن على وصفِ بعضه "سيذهب كله في زبالة التاريخ". وأنا أقول: إن كنتُمْ قد علمتُم أن للتاريخ زبالة؛ فما زبالته إلا هذا القائل. أما هذه العِصابة المباركة التي تَجنَّى عليها، فما ذلك بضائرِها، وما علمتُها إلا عصابة حقّ، كراما بررة، ليسوا بأثمة ولا فجرة. فقد نرى فضائلهم تشيعُ في البشر ، وهي اليوم تُرى غُرّة على جَبْهَة الشمس والقمر ، وسيُكْتَبُ لهم بها – إن شاء الله – حُسْنُ الأحدوثة الباقية على الدهر . فالله يَخْتِمُ لنا ولهم بالحُسْنى .والسلام

هذا آخر ما تيسر كَتْبُهُ الآن، وإني –إن شاء الله– متابِعٌ في الكتب التي تتصل بهذا الأمر والتي سوف أبعث بها إليكم، تولاكم الله بحسن عنايتِهِ.